يا شعبنا المكافح الصبور »(٢٤)

في قصيدة « حمزه » تقدم فدوى نموذجا حيا . لانه أولا لا يخلو من خصوصية الانسان الطيب الذي يأكل خبزه من كدحه ، كجميع البسطاء الطيبين ، ولانه ايضا لا يخلو من عمومية الشمول الذي يجمع الكل في واحد ليكون رمزا موحيـا ، لا للانسان الفلسطيني الثائر ، ولخصب ثورته ، فحسب ، بل للارض الفلسطينية ولخصبها . وفدوى طوقان تقدم هذا النموذج بحاسة فنية ماهرة ، لا تسيب فيها ولا فضفضة ولا رومانسية .

« كان حمزه
واحدا من بلدتي كالاخرين
طيبا يأكل خبزه
بيد الكدح كقومي البسطاء الطيبين »

هذه البداية تبدو قصصية ، والقصيدة قصصية بالفعل ، ولكنها ذات منطق شعري غير سردي . منطق متداخل يجمع بين الاضداد ، ويوجد العناصر ليخلق طاقة الخصب . فحمزة في البداية انسان بسيط ، وهي اشارة لاثارة الانتباه ، يلاقي الشاعرة ذات يوم وهي تتخبط في تيه الهزيمة ليقول لها : « اصمدي يا ابنة عمي » لان هـذه الارض التي تحصدها نار الجريمة ، والتي تبدو اليوم حزينة وساكتة تملك قلبا لا يموت :

« هذه الارض امرأة
وفي الاخاديد وفي الارحام سر الخصب واحد
قوة السر التي تنبت نخلا وسنابل
تنبت الشعب المقاتل »

لم تعد « قوة السر » تعني لدى فدوى ما كانت تعنيه في عوالمها السابقة ، فهـي بعد أن كانت « جبرية » داخل الذات المظلمة ، « وقدرا » ماورائيا ، اصبحت اليوم جدلا يوحد بين الانسان والطبيعة ، بين الذات والعالم ، وقوة دافقة لا تتحـرك الا من أجل ميلاد جديد .

فحمزه ، الذي يغيب ويظهر ، انما يعطي ايحاء بالولادات التي لا تنتهي وبالثورة التي لا تتوقف . فبعد ان تدور الايام دون ان تلتقي الشاعرة به ، كانت تعرف أن الارض تعـد بمخاض وبميلاد جديد .

وبعد ان يحاول حاكم البلدة وجنوده نسف الدار التي يسكنها حمزه وأولاده ، يطل مـن الشرفات لينادي :

« يا فلسطين اطمئني
انا والدار واولادي قرابين خلاصك
نحن من اجلك نحيا ونموت »

وبعد انْ يتلاشى كل شيء ، تعود الدورة لتبشر الشاعرة من جديد :

« أمس ابصرت ابن عمي في الطريق
يدفع الخطو على الدرب بعزم ويقين !
لم يزل حمزة مرفوع الجبين »

وهكذا ، بعد تجربة طويلة من الطواف ، تتعرف الشاعرة فدوى طوقان على الطوفان ، وبعد تحديق طويل في الموت تتعرف على « الميلاد » لتغني الارض الجديدة ، والمستقبل الجديد ، والانسان الجديد .

---

٢٤ ــ المصدر السابق ، ص ٩٦ .
٢٥ ــ المصدر السابق ، ص ٨٨ .